



الدولة الحمدانية في حلب

پدیدآورده (ها) : زکار، سهیل

میان رشته ای :: المنهاج :: زمستان 1375 - شماره 4

از 173 تا 185

آدرس ثابت : <http://www.noormags.ir/view/fa/articlepage/208625>

دانلود شده توسط : رسول جعفریان

تاریخ دانلود : 14/04/1395

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) جهت ارائه مجلات عرضه شده در پایگاه، مجوز لازم را از صاحبان مجلات، دریافت نموده است، بر این اساس همه حقوق مادی برآمده از ورود اطلاعات مقالات، مجلات و تألیفات موجود در پایگاه، متعلق به "مرکز نور" می باشد. بنابر این، هرگونه نشر و عرضه مقالات در قالب نوشتار و تصویر به صورت کاغذی و مانند آن، یا به صورت دیجیتالی که حاصل و بر گرفته از این پایگاه باشد، نیازمند کسب مجوز لازم، از صاحبان مجلات و مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی (نور) می باشد و تخلف از آن موجب پیگرد قانونی است. به منظور کسب اطلاعات بیشتر به صفحه **قوانین و مقررات** استفاده از پایگاه مجلات تخصصی نور مراجعه فرمائید.



پایگاه مجلات تخصصی نور

الدولة الحمدانية في حلب

١. د. سهيل زكار *

مدخل تمهيدي

بلاد الشام، عند الجغرافيين العرب، صقع من الأرض تقع بين سقّي الفرات من الشرق والبحر المتوسط من الغرب، ويحد هذه البلاد من الجنوب البحر الأحمر وعريش مصر، ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل بعيداً إلى ما بعد سفوح جبال طوروس من الجانب الشمالي.

جعل العرب المسلمون هذه البلاد، بعد فتحها، خمسة أجناد هي: جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص ثم جند قنسرين، ومن حيث الواقع العملي عاش هذا التقسيم، قليلاً، واستمر نظرياً فقط.

سكن بلاد الشام، قبل الفتح، عدد من القبائل العربية، كان أكثرها - تبعاً لروايات النسّابين العرب - منحدرًا من أصل يمانّي، وكان جلّها في الجنوب من غسان وكنب، وعانت غسان من الدمار بسبب الفتوحات، ما هيأ الفرصة أمام كلبٍ للزعامة.

وبعد الفتح، جاءت إلى الشام قبائل جديدة، استقر معظمها في جند حمص، وجاورت بلاد الشام ريف الجزيرة؛ حيث عاش عدد من القبائل كان أهمّها، قبل الفتح، تغلب. ويلاحظ أن قبائل الشام كانت تدين، قبل الفتح، بالمسيحية.

غيّرت معركة صفين البنية القبلية لبلاد الشام، فقد لحق الدمار قبائل جند حمص، وجاءت إلى الشام، من العراق ومن شبه الجزيرة، قبائل كلاب، واصطلحت كلاب مع

* أستاذ التاريخ، في جامعة دمشق. ونائب رئيس اتحاد المؤرخين العرب

القبائل المستقرة، وسعت إلى السيطرة على الشام شمالاً وجنوباً، فأخفقت في معركة مرج راهط سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م. وفي حقبة الصراع على الخلافة، بين عهدي يزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان، خاضت القبائل القيسية الوافدة إلى الشام الشمالي وريف الجزيرة معارك شرسة ضد تغلب، وحقت عدة انتصارات دموية، ودفعت بتغلب إلى الإنسياع شمالاً.

تميزت قبائل قيس الجديدة، وعلى رأسها كلاب بالتمزق، ومع هذا قسّمت معركة مرج راهط وما تلاها بلاد الشام إلى دارين يفصل بينهما خط وهمي انطلق من بلدة الرستن على العاصي شرقاً وغرباً، وغدت الدار الشمالية لكراب والدار الجنوبية لكلب.

أثر هذا، مع جملة من الأحداث، على الاستراتيجية السياسية للشام، فغدت مدينة حلب رأس مدن الشمال، ومدينة دمشق رأس مدن الجنوب، وعلى محور الصراع ما بين حلب ودمشق صيغ تاريخ الشام لقرون مديدة.

وفي العصر الأموي، كانت دمشق حاضرة الخلافة، وكانت حلب قاعدة الصراع ضد الأمباطورية البيزنطية، وفي هذا العصر تبنى العرب مبدأ الهجوم ضد البيزنطيين وفق قواعد الصوائف والشواتي، وبعد سقوط الدولة الأموية تراجعت مكانة دمشق، وارتفعت مكانة حلب، واتخذ العباسيون مبدأ الدفاع ضد بيزنطة، وعلى هذا الأساس تحولت التحوم مع بيزنطة إلى مراكز دفاعية عُرفت باسم الثغور.

لم تتمتع الخلافة العباسية بالقوة والوحدة طويلاً، فبعد مقتل الأمين أخذت بعض الأقاليم تنفصل عن المركز، وازداد هذا بعد مقتل المتوكل وسيطرة قادة الجند الأتراك على مقاليد الأمور، وكان مما نتج عن هذا استقلال مصر بقيام الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢هـ/ ٨٦٨ - ٩٠٥م)، وسارت الدولة الطولونية على نهج دول مصر المستقلة تجاه بلاد الشام، فمصر التي لا تفصلها عن الشام حواجز طبيعية، غُرِيت دوماً من هذه البلاد، لذلك حاول حكام مصر الدفاع عن بلدهم باحتلال الشام، ما ولد الرغبة بالمزيد من التوسع. ويلاحظ، في هذا المقام، أن حكام مصر الإسلامية المستقلة نجحوا في احتلال الأجزاء الجنوبية من الشام، وأخفقوا بالاحتفاظ بالأجزاء الشمالية التي كانت حاضرتها حلب.

على ضوء ما تقدم، يمكننا فهم طبائع ما تحكم بأية دولة تأسست في حلب

الإسلامية، فقد كان على حُكّام هذه الدولة، إذا ما رغبوا بالاستقلال، أن يدخلوا في صراع ضد ثلاث قوى خارجية كبرى هي: خلفاء بغداد وحكام مصر وأباطرة القسطنطينية، وأن يتدبروا شؤون العلاقات مع الموصل ومع القوى القبلية في الجزيرة والشام الشمالي.

ظهور الأسرة الحمدانية

يعود الحمدانيون، في أصلهم، إلى قبيلة تغلب. وقد أشرت، أعلاه، إلى أن هذه القبيلة كانت تعدّ من أشهر القبائل العربية وأكبرها، وكانت تقطن أعالي إقليم الجزيرة قبل ظهور الإسلام، وفي أثناء حقبة الفتوحات، وكانت تدين بالنصرانية، ولقد رفضت تغلب بعد الفتح دفع الجزية، وسبّب ذلك مشكلة صعبة للخلافة، عالجها عمر بن الخطاب، بأن ضاعف الصدقة عليها، وأن لا تقوم بتعميد أولادها.

حافظت قبيلة تغلب، بكلّ صعوبة، على مكانتها في العصر الأموي، لكن هذه المكانة تأثرت كثيراً بتدفق قبائل قيسية جديدة، ثم تأثرت أيضاً بما شهدته منطقة الجزيرة في أواخر العصر الأموي، وأثناء الحكم العباسي المبكر، من ثورات وحركات سياسية، وبخاصة ثورات الخوارج، وبعد ذلك بأمّد طويل حركات القرامطة ونشاطاتهم العسكرية في العراق والشام والجزيرة، يضاف إلى هذا ضغط القبائل الكردية ومحاولات اجتياح الجزيرة. ففي ظل هذه الأحوال ظهرت، بين صفوف تغلب، أسرة زعامة هي الأسرة الحمدانية، وكانت أهم حواضرها مدينة «ميفارقين» في أعالي الجزيرة.

قامت صلات بين هذه الأسرة والخلافة العباسية منذ عهد الخليفة المعتضد [٢٧٩ - ٢٨٩هـ / ٨٩٢ - ٩٠٢م]. وساعد أفراد منها الخلافة العباسية ضدّ الخارجين عليها ولا سيما القرامطة، واتسم هؤلاء بالشجاعة المفرطة، وفي هذه الأثناء تكونت شخصية الأسرة الحمدانية، وأصبحت تشكّل إحدى القوى العسكرية، لكن بخلفية قبلية غير متينة، لذلك كانت هذه القوة صغيرة فيها عناصر تركية كثيرة وديلمية أيضاً على قاعدة شراء الغلمان وتدريبهم، وفق النظام المشهور الذي أرسى قواعده الخليفة المعتصم العباسي.

استخدمت الخلافة العباسية قوة الحمدانيين في غير مناسبة وبقعة، وقد وطّد هذا من مكانتهم، وورطهم في قضايا الخلافة، ودفعهم أكثر فأكثر نحو الصراع السلطوي والطموح للتحكم ببغداد.

ومن «ميفارقين» تطلع الحمدانيون نحو الموصل، وسعوا للسيطرة عليها، لتكون قاعدة للانطلاق نحو بغداد وسواها، وتحقق هذا الحمدانيون سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م. عندما عين الخليفة المكتفي الأمير أبا الهيجاء الحمداني والياً على الموصل. لم يول أبو الهيجاء الموصل عنايته الكلية، بل اهتم ببغداد وبمشاكل الصراع عليها فيها، وانجرف مع تيارات السياسة في بغداد صعوداً وهبوطاً، وهكذا قضى معظم وقته في بغداد، واضطر، بسبب ذلك، إلى أن ينيب ابنه الأكبر الحسن عنه في أمرة الموصل، والحسن هذا هو الذي سيعرف باسم ناصر الدولة.

قامت مدينة الموصل في وسط تاريخي عريق. وكانت، بحكم موقعها الجغرافي، مدينة هامة جداً، ذات موارد اقتصادية كبيرة، تأتيها من الزراعة والتجارة. فهي مدينة تقع وسط سهل خصب، يمدّها دجلة بالماء، وهي قرية من البادية وقبائلها العربية، ثم إنها لم تكن بعيدة عن الأراضي البيزنطية. وكانت منذ قيام الدولة العباسية وثيقة الصلة ببغداد وبمشاكل العراق السياسية، أي كانت قطعة من العراق. وقد بقيت هكذا حتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس هـ/الحادي عشر م، فعند ذاك تحولت لتصبح قطعة من بلاد الشام تشارك في مشاكلها وقضاياها، وقد يرى بعضهم أن مقدمات هذا التحول قامت مع حكم الحمدانيين لها، حيث شاركت جزئياً، وبشكل فعال ومؤثر أحياناً في الحياة السياسية لبلاد الشام، لكن ذلك وقع ضمن إطار الصراع من أجل السيادة والسلطة في عالم الخلافة العباسية.

أصبح الحسن بن أبي الهيجاء أميراً على الموصل بعد أبيه، ويمكن عدّه الباني الفعلي للدولة الحمدانية بالموصل، لكنه كان مثل أبيه، فانغمس في مشاكل الصراع على السلطة في بغداد. وكان يساعده، وقتذاك، أخوه الحسين، قائد القوات الحمدانية، وصحيح أنه كان شجاعاً، لكنّ مواهبه العسكرية كانت عادية، ولهذا خسر جل المعارك التي خاضها.

نجح ناصر الدولة، لحقبة قصيرة، في السيطرة على بغداد وتسلم منصب أمير الأمراء، ونال لقب ناصر الدولة، كما نال أخوه عليّ لقب سيف الدولة، لكنه أكره على ترك بغداد والعودة إلى الموصل، وبعد هذه العودة أقلع سيف الدولة عن التطلع نحو بغداد والتفت نحو حلب.

بداية قيام الدولة الحمدانية في حلب

سلفت الإشارة إلى أن الدولة الطولونية كانت أول من استقل بمصر، وبعد سقوط هذه الدولة، بآمد يسير، خلفها في حكم مصر الأسرة الأخشيديّة [٣٢٣-٣٥٨هـ/٩٣٥-٩٦٩م]، وقام الأخشيد بمدّ سلطانه إلى بلاد الشام، ودخلت حلب سنة ٣٢٥هـ/٩٣٧م في حوزة الدّولة الأخشيديّة، ولقد عين الأخشيد أحمد بن سعيد بن عباس الكلّابي والياً على حلب.

وصلت، في هذه الآونة، إلى شمال الشام والجزيرة، جموع جديدة من بداءة شبه جزيرة العرب، وضمت هذه الجموع قبائل من عامر بن صعصعة هي كلاب، ونمير، وقشير، وعقيل، وأحدثت هذه الهجرة فوضى سياسية كبيرة في الشام الشمالي والجزيرة. وهكذا لم تستقم الأمور للأخشيد في حلب. وفي سنة ٣٢٧هـ/٩٣٩م فوّض الخليفة الرّاضي لمحمد بن رائق أمور حلب، فجاء إليها وانتزعها من نائب الأخشيد، لكن الأخشيد أسترّد حلب، وقام محمد بن رائق، سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م، نتيجة للصراع على إمرة الأمراء في بغداد بالالتجاء إلى ناصر الدولة في الموصل، وقام ناصر الدولة بقتل محمد بن رائق، ومدّ بصره نحو بلاد الشام يريد السيطرة على القسم الشمالي منها، وقاد هذا إلى مواجهة بين الحمدانيين والأخشيد، ولم تتكلّل جهود ناصر الدولة بالنجاح، وأبقى الأخشيد ولاية حلب في يد أحمد بن سعيد الكلّابي.

كانت قبيلة كلاب متميزة بالتمزّق حول الزعامة والصراع بين رجالاتها، وقد دفع هذا بعض أمرائها إلى السفر نحو الموصل، فاتصلوا بعلي بن عبدالله، أخو ناصر الدولة، ودعوه للقدوم إلى حلب وتسلم مقاليد الأمور فيها، وكان علي آنذاك حاكماً لنصيبين، فعرض الأمر على أخيه فوافق بعد تردد، وتحرك علي نحو الشام، وتمكن من دخول حلب من دون مقاومة في ٨ ربيع الأول سنة ٣٣٣هـ/١٧ تشرين الأول سنة ٩٤٤م، وهكذا بدأ عصر جديد في تاريخ شمالي بلاد الشام، وتاريخ الجهاد الإسلامي ضدّ الأمبراطورية البيزنطية، أو لنقل بدأت أحداث التصدي لصليبية القرن العاشر م.

لم يقبل الأخشيد باستيلاء سيف الدولة على حلب، وقام صراع بينه وبين الأخشيد، وجرّ هذا الصراع سيف الدولة إلى السيطرة على دمشق، لكن الدولة الأخشيديّة استطاعت

إلحاق الهزيمة به، ولم تكتف بانتزاع دمشق منه، بل انتزعت مدينة حلب أيضاً لأمد قصير. وأخيراً عقد اتفاق في سنة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م بين الدولة الأخشيدية وسيف الدولة، ترك بموجبه حكم الشام الشمالي لسيف الدولة، ويمكن عدّ هذه السنة البداية الفعلية لقيام الدولة الحمدانية في حلب.

توطيد أركان الدولة

التفت سيف الدولة، بعد هذا، إلى دولته فوطد أركانها، وأقام لنفسه بلاطاً فخماً أراد أن يضاهي به بلاط بغداد وغيرها من حواضر دار الإسلام، وجمع في هذا البلاط عدداً كبيراً من العلماء في كل فن مع فحول الشعراء، وكان على رأس هؤلاء الشعراء المتنبي، واستخدم رجال بلاطه للدعاية له ولحكمه، والواقع أن شهرة سيف الدولة وعظمته قائمة إلى حد كبير على ما صنعه رجال بلاطه من دعاية له، وتدين لشعر المتنبي بالشيء الكثير، لكن المتنبي لم يمدحه من فراغ بل وجد فيه نموذج البطل المجاهد لعصره فخلّد بطولاته.

وشغل سيف الدولة معظم وقته في الأعمال الحربية ضد الأمبراطورية البيزنطية، وكانت هذه الأمبراطورية ذات طاقات عملاقة، وتعيش آنذاك حقبة استفاقة وتجميع قوة، وقد تهيأ لها عدد من القادة والأباطرة الأكفاء، وخاض سيف الدولة بإمكاناته المتواضعة حروباً مريعة ضد هذه الأمبراطورية، ستعرض بعد قليل للمهم منها، ومهم أن نشير هنا إلى أن سياسة سيف الدولة العسكرية، وزيادة عدد قواته عن طريق الشراء، ونفقات بلاطه احتاجت إلى أموال كثيرة جداً، وجمع سيف الدولة هذه الأموال من المصادرات والضرائب الثقيلة، وعن طريق «رأسمالية الدولة» في الاستيراد والتصدير، ولهذا شكّا بعض الناس من معاصريه من ثقل ضرائبه، واستغل ذلك دعاة الدعوة الإسماعيلية ضده.

كان سيف الدولة شيعياً إمامياً، وحاول الإسماعيلية كسبه إلى صفوفهم وكلفوا بذلك الشاعر المتنبي، ولكنه أخفق فغادر حلب إلى مصر للقيام بمهام أخرى، وحاولت الدعوة النصيرية كسبه إلى صفوفها بوساطة الخصيبي، وهناك إشارات ترجح نجاح الخصيبي، لكن من الصعب توثيق ذلك.

التصدي لصليبية القرن العاشر الميلادي

لقد تصدى سيف الدولة لصليبية القرن العاشر، وقاتل الروم مهاجماً ومدافعاً وحقق نجاحات كبيرة، لكن الموجة كانت أعظم من إمكانياته، وأصحاب الإمكانات من حكام المسلمين كاعوا وقتها وجبنوا، فصمد سيف الدولة وحده وسدد الثمن بجسده الذي أصيب بالشلل، ولا بأس بهذا فهو قد استهدف الشهادة أو النصر.

في الوقت الذي تسلم فيه سيف الدولة السلطة في حلب كان قد تطور في منطقة الثغور الإسلامية نظام دفاعي محكم، وصلتنا أوصافه في كتاب «سير الثغور» للطرسوسي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م، فمدن الثغور كانت محصنة قوية الدفاعات متعاونة، فيها مخازن للسلاح والمؤن والعتاد، وكان وقتها من عادات صلحاء المسلمين المراقبة في الثغور، كما اعتاد الأغنياء على التبرع بالسلاح والخيول والأعتدة للثغور، ووجد لدى أهل مدن الثغور أنظمة عسكرية خاصة محكمة تنقل هنا نموذجاً عنها ما كتبه الطرسوسي في كيفية النفير بطرسوس، وهي أم الثغور، قال: «يركب المتولي لعمل الحسبة، أي وقت وقع النفير من ليل أو نهار، ورجاله بين يديه ينادون بأعلى أصواتهم أجمع صوتاً واحداً، يقولون: النفير يا أصحاب الخيل والرجالة، النفير حملكم الله إلى باب الجهاد، وإن أراد إلى باب قلمية أو إلى باب الصفصاف أو إلى أي باب اتفق، وتغلق سائر أبواب المدينة، وتحصل مفاتيحها عند صاحب الشرطة، فلا تزال مغلقة حتى يعود السلطان من النفير، ويستقر في داره، ثم تفتح الأبواب المغلقة كلها.

ويطوف المحتسب ورجاله الشوارع الجداد كلها، فإن كان ذلك نهراً أنضاف إلى رجائه عدد كثير من الصبيان، وساعدوهم على النداء بالنفير، وربما احتاجوا إلى حشد الناس لشدة الأمر وصعوبة الحال، فأمر أهل الأسواق بالنفير وحضهم على المسير في أثر الأمير أين أخذ وكيف سار، ويكون صاحب الشرطة إذا وقع النفير مع رجائه الموسومين به عند الباب الأول الذي يلي المدينة الذي يخرج منه الناس إلى النفير، وكذلك المحتسب، إلا أن المحتسب يتردد في الأسواق إذا طال أمر النفير، وتأخر خبره، ويبعث على اللحق بمن سار مع الأمير، ويمن توجه إلى النفير، فلا يزال الأمر على هذا حتى يعود السلطان إلى دار الإمارة.

ويخرج إلى النفير قواد الرجال، معروفون متى عقد السلطان لقائد من الفرسان فيبعثه للقاء من ورد من ذلك الوجه أضاف إليه قائداً من قواد الرجال، وأتبعه من أجلاد الرجال أهل القوة والنشاط والنية من المطوعة المسجدية، حتى إذا نزلوا أول منزل تبتل شيخ، بل شيوخ من الصلحاء معروفون بحفظ من هناك من الغلمان المرموقين بالصباحة والوضاءة، فتتضاف طبقة طبقة إلى ذي معرفتهم وثقتهم، وحصلوا تحت علمه ورايته، فلو هم أحدهم بالوضوء لصلاة لما أفرج عنه إلا بربيب ثقة أمين، شيخ معروف، يمضي معه لحاجته، حتى إذا فرغ منها عاد إلى جملته.

وقد رأينا في آخر أيام طرسوس رجلاً يعرف برؤية يجتمع إليه الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم، يزيد عددهم على ألف صبي كلهم بالسلاح الذي يمكن مثلهم حمل مثله، ويمزادهم وقد أعدوا فيها من صنوف أطعمة أمثالهم، يطوف جميعهم بمطرده يحمله رؤية، يسرون بسيره ويقفون بوقوفه، فلا يزال ذلك دأبهم حتى إذا عاد السلطان إلى مقر داره عند رجوعه من نفيده، دخل أولئك الصبيان أمامه على مراتبهم، يصفهم قائدهم الأمثل فالأمثل، رماثهم عن قسي الرجل التي قد عملت على مقاديرهم، ثم رماثهم عن القسي الفارسية، وربما كان فيه من أولاد اليمانية من يحمل القسي العربية بنبيلها، فيدخلون فوجاً فوجاً صبيين صبيين، ثم من يحسن الثقافة، فيثاقف قرينه ومثله وخديته وشكله حتى يدخل كل صنف منهم في مرتبته، ثم يتلوهم رؤية قائدهم بمطرده وعلامته، حتى إذا خرج أحد أولئك الصبيان من حد الطفولة، واشتد عضده، وقارب حد البلوغ، أو بلغ، أو تجاوز البلوغ قليلاً، انضاف إلى قائد من قواد الرجال الذين ذكرت، وصحبه في نفيده وغزوه، وارتاد لنفسه الرفاق بحسب ما يختار تربه وجاره وقرينه، فإذا التحى، وخرج عن حد المرد، دخل في جمهور الناس، حاذقاً بما يحتاج إليه، ماهراً بصيراً بأمر جهاده وتدبير أمره، نافذاً يقظاً إن شاء الله.

على هذا كان التنظيم الاجتماعي لأهل الثغور عسكرياً رفيعاً، لهذا اتسم أهل الثغور بالحنكة والدراية مع الشجاعة والاقدام، وكانوا أدري الناس بمبادئ السوقية العسكرية لدى البيزنطيين مع تطبيقاتها.

لقد عرف التاريخ البيزنطي عدداً من المنظرين العسكريين، وكانت بيزنطة لا تلجأ إلى

الحسم العسكري إلا بعد التعزيز بأعدادها، وعمدت بيزنطة إلى تقسيم أراضيها إلى عدد من البنود العسكرية - ثيمات - وكان لكل بند قواته الخاصة مع قيادة فيها عدد من الضباط، وتكونت الوحدات البيزنطية من رجالة وفرسان، وامتلكت بيزنطة نظاماً للإنذار ونقل المعلومات العسكرية بوساطة الدخان والنيران والمرايا العاكسة، وبما أنه توجب على القوات الإسلامية لدى غزوها للأراضي البيزنطية المرور بمسالك جبلية صعبة، فقد كانت وحدات المراقبة البيزنطية في الجبال تنقل خبر الجيش الغازي لدى عبوره للمسالك الجبلية إلى قيادة البند، فتقوم هذه بنقل الخبر إلى البنود الأخرى حتى العاصمة القسطنطينية، وتقوم في الوقت نفسه، باستتفار قواتها من الفرسان والرجالة، أما الفرسان فيعملون على الحيلولة بين الجيش الغازي وبين تحقيق أهدافه، أما الرجالة فكانوا يسرعون نحو المسالك الجبلية لنصب الكمائن لقطع الطريق على الجيش الغازي أثناء العودة.

لقد نجحت بيزنطة في تطبيق هذا التكتيك ضد قوات سيف الدولة، وتمكنت من إنزال ضربات قاسية بقواته، ما أوهن قواه، وبعد ذلك لجأت إلى مبدأ الهجوم فاجتاحت الثغور ودخلت مدينة حلب عاصمة سيف الدولة نفسها.

بدأت المواجهات بين سيف الدولة والبيزنطيين منذ العام ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م، فقد توغل الأمير العربي داخل التخوم البيزنطية ونزل على حصن زياد فخرّبه وأحرقه، وحاول الروم منعه من تنفيذ أغراضه فهزمهم وعاد إلى حلب منتصراً، ولم يبق في الشهباء طويلاً، بل خرج في العام التالي نحو حصن برزويه فحرره، وتوغل بعد هذا داخل الأراضي البيزنطية، ونفذ الروم تكتيكاتهم نحوه فأوقعوا ضربة قاسية بقواته حتى أنهم تمكنوا من احتلال حصن مرعش. تأثر سيف الدولة بهذه الهزيمة وأخذ يزيد من استعداداته لمتابعة الجهاد فجمع جيشاً قيل بلغ تعداده الثلاثين ألفاً، وانضم إليه جند طرسوس وكان عددهم أربعة آلاف مقاتل، وتوغل سيف الدولة عميقاً في آسية الصغرى مما أربع الروم، حتى قرروا التخلص منه بتدميره أو باغتياله.

وفي طريق العودة أخذ الروم عليه الدروب فأبادوا قواته، واستخلصوا ما حصل عليه المسلمون من غنائم، وآثر سيف الدولة الانتحار على أن يقع أسيراً في أيدي العدو فرمى نفسه وهو على ظهر فرسه من شاق فكتب الله له السلامة ونجا ليعاود مجدداً الجهاد.

وعرض عليه الروم المهادنة فرفض، وبعدما أتم تجهيز نفسه تقدم في سنة ٣٤٠هـ/٩٥١م نحو التخوم فأوقع بالروم هزيمة كبيرة، ثم عاود الكرة في العام التالي فانتصر وتمكن من إعادة بناء حصني رعبان ومرعش، وذكر المتنبّي هذه الواقعة بقوله:

فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجود تطرد الفقر والجديبا
سراياك تترى والدمستق هارب وأصحابه قتلى وأمواله نهبي

أراد البيزنطيون، في العام التالي، الانتقام من سيف الدولة فزحفوا بقواتهم الأمبراطورية العملاقة عام ٣٤٢هـ/٩٥٣م نحو الثغور الإسلامية، ففاجأهم سيف الدولة وهزمهم، وتابع زحفه حتى ملطية على الفرات، وأراد البيزنطيون استغلال بعده عن الثغور الشامية فزحفوا نحوها، فسارع سيف الدولة وانقض على الجيوش البيزنطية فأنزل بها ضربة ماحقة، وكان بين أسراه قسطنطين بن الدمستق البيزنطي وعدد من بطارقة الروم، ولم يستطع الدمستق تحمل هول الهزيمة فتخلى عن وظائفه ودخل الدير مترهباً، وفي الوقت نفسه تعرض ابن الدمستق إلى إهانات قاسية، فتدبرت بيزنطة أمر اغتياله في حلب بوساطة أحد التجار النصاري.

وكانت بيزنطة تحسن استغلال أتباع الكنيسة الأرثوذكسية في التآمر وجمع المعلومات، ولقد كانت الجيوش البيزنطية مكونة من مرتزقة من مختلف الجنسيات الأوروبية، لأنها كانت بالفعل تمارس صليبية القرن العاشر ضد المسلمين، ونجد أصداء هذا في شعر المتنبّي من ذلك قوله:

يكلف سيف الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم
ويطلب عند الناس ما عند نفسه وذلك ما لا تدّعيه الضراغم

أتوك يجرون الحديد كأنما سرّوا بجياد ما لهن قوائم
خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم
تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث إلا التراجم

ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم

وأحدث تصدي سيف الدولة لصليبية القرن العاشر أصداء واسعة في أوساط العالم الإسلامي، وظهر هذا في شعر الشعراء وكتب الأدباء مثل يتيمة الدهر للثعالبي التي قال مصنفها في مطلعها: «كان بنو حمدان ملوكاً وأمراء أوجههم للصباحة، وألستهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلاذتهم، وكان - رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأواه - غرة الزمان، وعماد الإسلام، ومن به سداد الثغور، وسداد الأمور، وكانت وقائعه في عصاة العرب تكف بأسها، وتتزع لباسها، وتغل أنيابها، وتذل صعابها، وتكفي الرعية سوء آدابها.

وغزواته تدرك من طاغية الروم الثأر، وتحسم شرهم المثار، وتحسن في الإسلام الآثار، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء، وحلية الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر، ونجوم الدهر».

ولئن أثارت مواقف سيف الدولة الشعراء والأدباء إلا أنها لم تجلب له أدنى عون من بغداد والفسطاط والمهدية، وهكذا وضع مع الأيام أن إمكانات سيف الدولة وقدرته على الاستمرار باتت قصيرة، وأخذت الأحوال تضطرب داخلياً من قبل بداية القبائل وبعض أصحاب المطامح في الثغور، واستغلت بيزنطة ذلك فسعت إلى تدمير عواصم الثغور وأفلحت بذلك ثم أعدت العدة لاجتياح مدينة حلب بالذات.

وحشدت بيزنطة كل ما توافر لديها من إمكانات عسكرية، وزحفت جيوشها سنة ٣٥١هـ/ ٩٦٢م نحو حلب: واستطاعت هذه الجيوش اختراق المدينة ولم يتمكن سيف الدولة من صدها، ودمر البيزنطيون المدينة تدميراً مريعاً، جاء بمثابة مقدمة لما سيقترفه الصليبيون بعد قرن ونيف، ولم يكتف البيزنطيون بذبح السكان، بل جمعوا الشباب والشابات فساقوا أمامهم قطاراً من الأسرى تجاوز عدده العشرين ألفاً.

وأثر سقوط حلب على سيف الدولة تأثيراً كبيراً، وجلب له مرضاً شديداً، كما خلق له كثيراً من المشاكل، فلقد انفرط الآن عقد دولته، وتفجرت الفتن في كل مكان واستمر الضغط البيزنطي عليه يبغي تصفيته ودولته نهائياً، وأصيب سيف الدولة بالفالج، وفي صفر

من عام ٣٥٦هـ/كانون ثاني ٩٦٧م، اشتد مرضه فتوفي في حلب، وحمل تابوته منها إلى «ميا فارقين»، حيث دفن بها.

نهاية الدولة الحمدانية وقيام الدولة المرداسية

وعندما توفي سيف الدولة كان ولده سعد الدولة، أبو المعالي شريف، في «ميا فارقين» مع والدته. وبعد شيء من الصراعات بين غلمان سيف الدولة، استدعي إلى حلب، فقدمها ودخلها وتسلم منصب الأمرة فيها، لكن مقاليد الأمور كانت في يد حاجب أبيه قرغويه، وفي مطلع عهد سعد الدولة ثار ضده خاله أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان في منطقته حمص، وتمكّن سعد الدولة من القضاء على الثورة وقتل خاله الشاعر المشهور:

لم يتوقّف نشاط بيزنطة وأعمالها ضد بلاد الشام زمن سعد الدولة، وكان على رأسها الأباطور نففور فوقاس الذي ادعى الانتساب إلى المرتد الغساني الأمير جبلة بن الأيهم. أضعف النشاط البيزنطي حكم سعد الدولة، وقام قرغويه بالاستيلاء على الأمور في حلب، ومنع الأمير من الدخول إلى المدينة، وكان ذلك سنة ٣٥٨هـ/٩٦٨م. ثم استطاع الأمير الحمداني تكوين قوة قادها ضد حلب فحاصرها، فاستنجد قرغويه ببيزنطة، واستغل البيزنطيون الفرصة فاستولوا على أنطاكية، وأعادوا احتلال حلب أيضاً، ولم يغادروها إلا بعد وضع معاهدة مفصلة، احتفظ لنا ابن العديم - مؤرخ حلب - بنصها، وتعد هذه المعاهدة من أهم وثائق القرن العاشر، لاحتوائها على مواد سياسية وتجارية واجتماعية ودينية هامة جداً.

ظلت حلب تحت حكم غلمان سيف الدولة حتى ما بعد سنة ٣٦٦هـ/٩٧٦م، حيث استطاع سعد الدولة العودة إليها، وقد خاض هذا الأمير بعض المعارك ضد بيزنطة، لكنه استنجد بها مرة لحمايته من المخاطر التي جاءت من الجنوب، من دمشق وغيرها، فقد تعرض حكمه للخطر، وفي لجنة الفوضى والاضطراب توفي سنة ٣٨١هـ/٩٩١م فخلفه ابنه أبو الفضائل سعيد.

أصبح سعيد الدولة أميراً على حلب غداة وفاة أبيه، ولكنه أصبح أميراً بالإسم فقط؛

حيث أن مقاليد الأمور رست هذه المرة في يد أحد غلمان جده واسمه لؤلؤ.

وتمتاز حقبة حكم أبي الفضائل سعيد الدولة مع الحقب التي تلتها بمحاولات الخلافة الفاطمية الملحة والمتكررة للاستيلاء على حلب، وتدخل بيزنطة المباشر وغير المباشر لحماية المدينة ومنع الفاطميين من أخذها، فقد رغبت بيزنطة الآن بالحفاظ على استقلال حلب لتكون دولة حازجة بينها وبين الخلافة الفاطمية التي انتقلت إلى القاهرة، ولتكون أيضاً أداة وصل تجارية مع العالم الإسلامي.

بقي أبو الفضائل في منصبه حتى توفي مسموماً في سنة ٣٩٢هـ/١٠٠٢م، وبعد تاريخ موته التاريخ الفعلي لانهاء الحكم الحمداني بحلب. فبعد وفاته حكم لؤلؤ لأمد قصير باسم طفلي سعيد الدولة: أبو الحسن علي، وأبو المعالي شريف، ومساعد لؤلؤ في حكمه ولده منصور، وبعد وفاته ورثه ابنه، فقرر الاستقلال بحكم حلب وقام بنفي الأميرين الحمدانيين إلى مصر.

حاول منصور بن لؤلؤ إقامة علاقات متوازنة مع كل من بيزنطة والقاهرة، غير أنه تورط في نزاعات شديدة مع قبيلة كلاب، التي تزعمها صالح بن مرداس، وبعد جولات من الصراع ما بين صالح بن مرداس ومنصور بن لؤلؤ، انتصر صالح فاستولى على حلب؛ حيث أسس حكم الأسرة المرداسية.

استمرت النهضة الثقافية التي شهدتها حلب أيام سيف الدولة حية، صحيح أن نشاط هذه النهضة خبا بعد وفاة سيف الدولة في مدينة حلب، غير أنه انبعث شعبياً في بلدة المعرة، وما المعري وابن أبي حصينة وعدد كبير آخر من أعلام القرن الخامس هـ/الحادي عشر ميلادي إلا بعض ثمار ما تمّ غرسه أيام سيف الدولة.
